تجليات السخرية في مقال"إبليس ينهى عن المنكر!"[1] لـ محمد البشير الإبراهيمي

The manifestations of irony in the article, "Satan deprives vice" of Muhammad al–Bashir al–Ibrahimi

د.فريدة مقلاتي

جامعة عباس لغرور – خنشلة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/03/08 **تاريخ القبول**: 2020/03/19

ملخص:

تعدّ السخرية من الأنواع الأدبية، وهي نمط تعبيري يستخدمه الكاتب لانتقاد الأوضاع السياسية والاجتماعية في مجتمعه، وتوجيه القارئ نحو الحدث الرئيس وهي لا تكشف عيوب الآخر، ونقائصه فقط، بل هي أيضا أداة للإذلال والاستهزاء، وقد وظفها الإبراهيمي للتعريض بكثير من الأساليب التي اتبعتها السياسة الاستعمارية لإحكام قبضتها على المغرب العربي، فسخّر قلمه السيال لإدانتها وإبرازها في صورة نقدية لاذعة، وقد جمع بين التلميح والتصريح في سخريته، ولغته امتازت بالعذوبة والوضوح؛ إذ يمكن أن نستخلص المعنى بسلاسة وسهولة. كما أن استخدامه للسخرية ليس بهدف الإضحاك، وإنما للاستهزاء وشد انتباه القارئ وضمان تفاعله لمعرفة حقيقة ونوايا الاستعمار وأذنابه.

الكلمات المفتاحية: تجليات، سخرية، مقال، استعمار، عنوان، لغة.

Abstract:

Irony is a literary genre, and an expressive style used by the writer to criticize the political and social conditions in his society. It is also orientation to the reader towards the main event as it does not reveal the flaws and shortcomings of the other but it is rather a mechanism of exposing, humiliation, and irony. "Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi" employed it to expose many of the methods that the colonial policy pursued to tighten its grip on Maghreb. He used his pen to conedemn that policy in the form of scathing criticism. He brought together insinuation and

the declaration. His language was characterized by clarity. The meaning can be extracted smoothly and easily.He used irony not to ridicule or for the purpose of laughter, rather to flout and to draw the attention of the reader and ensure his interaction to know the truth and intentions of colonialism.

Keywords:manifestations,irony,article,colonialism,title,language

توطئة:

إنّ السخرية نقد لاذع يحمل علاقة عاطفية قوية بين الساخر وموضوع سخريته والساخر يكون واعيا بسخريته بحيث نحس بكل ظلال التجربة منذ إحساسه بعدم الرضاء حتى مرحلة التعبير عن هذا الإحساس[2]، وبذلك فهي نمط خاص يتخذه الكاتب كأداة للتعبير عن الرفض ومقت بعض الأوضاع السياسة والاجتماعية السائدة في إقليمه، وذلك من خلال استخدام أساليب خاصة تنم عن الازدراء، والاستهزاء، وهذا ما تجلى في مقال الإبراهيمي، إذا يكشف من خلاله عن إحساسه العميق بعدم القبول، والاقتناع بأفعال الاستعمار وأذنابه في المغرب العربي، وعليه فهذه الدراسة ستنطلق من مجموعة من التساؤلات يأتي في مقدمتها: ما مفهوم السخرية؟ وكيف تجلت في مقال الإبراهيمي؟ وما هي أنماط السخرية المتجلية في مقاله؟ وما هي مميزات لغته؟.

1– في حدود المصطلح:

جاء في لسان العرب «سَخِرَ منه وبه سَخْرا وسخَراً ومَسْخَرًا وسُخْرًا بالضم، وسُخْرَةً وسِخْرِيًا، وسُخْرِيا وسخرية: هزئ به...يقال سَخِرْتُ منه، ولا يقال سَخِرْتُ به. قال تعالى: ﴿**لا يسخَرْ قومٌ من قومٍ**﴾... وقال الأخفش: سخرتُ منه وسَخِرْتُ به، وضحكت منه وضحكتُ به، وهَزِئْتُ منه وهَزِئْتُه... وفي الحديث: أتسخرُ مني...؟ أي أَتستهْزِئُ بي...والسُّخْرَةُ: الضحكةُ. ورجل سُخَرَةٌ: يَسْخَرُ بالناس،...وسُخرةٌ: يُسخرُ منه، وكذلك سُخْري وسُخرية...ويقال: سَخَرته بمعنى سَخَّرْته أي قهرته وذللته...وقد يقال في الهزء: سُخري وسِخري..وقوله تعالى: ﴿**فاتخذتموهم سُخْرِيا حتى أنسوكم ذكري**﴾...»[3].

كما ورد في المعجم الوسيط:سَخِرَ منه وبه سَخْرا وسُخْرا وسُخرية: هزئَ به، واستسخر منه: سَخِر، والسُّخرةُ: من يَسْخَرُ من الناس والمسخرَةُ: ما يجلب السّخرية... والسُّخَرَةُ: من يَسْخَرُ من الناسِ. المِسْخَرَةُ: ما يجلبُ السُّخْرِية. (ج) مَساخِرُ.(السُّخْرِيَة، والسُّخْرِيَّة): الهُزْءُ.[4]

نستشف من هذه التحديدات اللغوية أنّ لفظة "سخر" سواء بالفتح أو الضم، أو بالكسر أو بتشديد الخاء وكسرها كلّها تحمل معنى الاستهزاء والإذلال، والقهر، وكلها توحي بإيذاء الآخر وقهره وإذلاله.

كما عمد بعض الباحثين إلى تقديم تعريف للسخرية، منهم "راغب نبيل" حيث عرفها بقوله: «هي العنصر الذي يحتوي على توليفة درامية في النقد والهجاء والتلميح والملاحة والدعاية ...»[5]. كما حددها بعضهم على أنها نوع من التهكم، وغايته النيل من الآخر وذلك عن طريق نسب عيب من العيوب إليه، بغية الإساءة إليه، أو التشفي، أو الاستخفاف، أو الاستهانة.[6]

وهناك من حددها على أنها «طريقة للتهكم المرير والهجاء الذي يظهر في المعنى بعكس ما يظن الإنسان وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا »[7] ونلاحظ أن جلّ التعريفات تُجمع على أنها نمط خاص من التعبير يسعى من خلاله صاحبه إلى إلحاق الأذى بالآخر، أو نقد فكرة معينة أو أي شيء آخر، وبخاصة أن هدفها هو «التعريض بشخص ما أو مبدأ أو فكرة أو أي شيء آخر وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور»[8] ، وبذلك فهي آلية بلاغية تحتاج إلى ذكاء، وخفة، ومكر، ومعرفة لتحقيق التعريض والغرض المطلوب بطريقة لاذعة.

وقد اعتمد عليها الكثير من الكتاب لانتقاد أوضاع مجتمعاتهم، منهم العلامة "محمد البشير الإبراهيمي" وبخاصة في كتاباته التي ينتقد فيها السياسة الفرنسية أثناء الاحتلال وبذلك فهي «نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل، والحماقات، والنقائص الإنسانية الفردية منها، والجمعية كما لو كانت عملية الرصد أو المراقبة لها تجري هنا من خلال وسائل، وأساليب خاصة في التهكم عليها...»[9] ، وقد وظفها –السخرية– الإبراهيمي للتعريض بكثير من الأساليب التي اتبعتها السياسة الاستعمارية

لإحكام قبضتها على المجتمع الجزائري، فسخر قلمه السيال لإدانتها وإبرازها في صورة نقدية لاذعة.

وقد اعتمد الإبراهيمي كثيرا على فن المقال، فهو من الفنون البارزة والطاغية على ما سواه من فنون النثر عنده، «ويرجع هذا إلى ما كانت تمثله الصحافة في عهده من أهمية وما تؤديه من دور، فقد كانت الوسيلة الوحيدة لنشر الإنتاج الأدبي وحفظه من الاندثار وكانت المقالة فيها الفن الأنجع في أداء رسالة الإصلاح والأنسب للتعبير عن العواطف المتأججة وتفجير الطاقات المبدعة»[10]. وقد تميزت مقالاته بالأسلوب الأدبي الرفيع، وبلاغة اللغة وجمال التصوير الفني، وعنايته بالصنعة اللفظية دون إهمال الموضوع الرئيس، وقد اتخذ من السخرية أسلوبا للتعبير عن واقع الفرد في المغرب الإسلامي سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

2– تجليات السخرية: استخدم "محمد البشير الإبراهيمي" السخرية كأداة لتحقيق مبتغاه والمتمثل في كبح جماح أعدائه وفضحهم وقهرهم، فهو «حين يناقش خصمه يرميه بألفاظ حداد كأنها شفرات ماضية، أو شظايا محرقة، ... وكأنّ حروف ألفاظه لهب وجمله جمر وعباراته الجارحة سياط من العذاب»[11]. وهذا ما تجلّى في مقاله الموسوم بـ" "إبليس ينهى عن المنكر!..." حيث وجّه فيه نقدا لاذعا للمدرسة الاستعمارية الفرنسية، والطرقية الحديثة حيث شبههما بإبليس الذي يرغب في الخير، ويرغب فيه ويحض عليه ظاهريا، فالمدرستان في ظاهرهما توحيان بحب العلم، وتضمران عكس ذلك، ولكن الكاتب عرض بهما من خلال هذا المقال حيث ردّ على هذا الزعم والتظاهر، وقابل بين المدرسة الفرنسية، والطرقية الحديثة، وحدّد نقاط التلاقي بينهما، حيث يقول: «من أوجه الشبه بين المدرستين الاستعمارية، والطرقية الحديثة اللتين اصطحبتَا في النشأة، وتقارضتا النصر والمعونة أنّ العلم ليس شرطا في واحدة منها بل ربما كان الجهل شرطا في صحة الانتساب إليهما وفي كمال الاكتساب منهما وما معنى الخصوصية إذا لم يكن هذا؟ ...»[12].

نعاين أنّ الكاتب عمد إلى رصد ذلك التواشج بين المدرستين، وبين المفارقة العجيبة في شرط الانتساب إليهما، فالعلم ليس شرطا للانتساب، بل الجهل هو شرط أساسي لصحة الانتساب، فهذا تهكم مباشر، ومفارقة عجيبة، حيث نزع ثوب العلم عن المدرستين وبين

طبيعة عملهما ليحذّر بذلك أمته من فتن إبليس ومكايده (إبليس= فرنسا/ الطرقية الحديثة) حتى لا تثق الأمة فيهما، وتنصرف إلى ما فيه منفذ لها.

ويتضح جليا لدى القارئ الشروط الواجب توافرها في طلاب هاتين المدرستين، وذلك من خلال قول الكاتب: «..إنما مبني الأمر فيهما على المواهب والحظوظ (وعلى اللحظات) من أساتذة الأولى ومشايخ الثانية فلحظة من الأستاذ ترفع التلميذ درجات ولحظة من الشيخ تدفع المريد إلى النهايات، هذا كله باعتبار الأصل العام ثم تأتي الشروط الإيجابية والسلبية في كل فرد وأهمها في الإيجاب الاستعداد للشر في التلميذ، وأهمها في السلب التجرد من الدين والفضيلة ...»[13]، نعاين من خلال هذا النص أنّ الكاتب فضح المدرستين في كيفية تدرج التلميذ في مراتب العلم المتوقفة على أهواء الأساتذة والمشايخ، وتتجلى أيضا المفارقة في الشروط الواجب توافرها في التلميذ، حيث عرضها الكاتب في إطار سخرية سوداء مرة، وبذلك فهذه المفارقة تعكس دناءة الشروط البعيدة كلّ البعد عن العلم والتعلم والدين.

وقد لبسَّتْ المدرسة الاستعمارية على التلاميذ، حيث عملت حسب الكاتب على «ترويض نفوسهم على الشر بالجملة، فإذا جاء دور التفصيل لم يعجزها أن تُلبس الفاتك منهم لباس الناسك، وتقلد الراعي وظيفة الداعي وتسمَ الخلي بسمة الولي وتحرك لسان الماكر بورد الذاكر وتؤزّر أولاد الحرام بإزار الإحرام وتخلع على الصعلوك ألقاب الملوك»[14].

صور لنا الكاتب من خلال هذا النص سخريته من هذا التلبيس وغرضه الخداع والإيهام بالخير والمعروف، ولكنّه يضمر في الحقيقة بطريقة غير مباشرة الشر، ويحاول تزين أفعاله ليتمكن من تحقيق هدفه، فهذا التركيب – (الفاتك/ الناسك، الراعي/ الداعي الخلي/الولي، الماكر /الذاكر، الصعلوك/ الملوك)– الذي استعمله الكاتب في جمله وعباراته هدفه التنبيه على طبيعة التلبيسات التي يلجأ إليها الاستعمار في الجزائر، وبذلك فهو كإبليس «يزين [للإنسان]الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنّه من أنفع الأشياء ... وجمّل الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة... »[15]، ومن صور تزيينه أيضا تسمية أتباعه ووصفهم بغير أسمائهم، وأوصافهم الحقيقية، وذلك من أجل تحبيبهم إلى القلوب وتحقيق الإقناع

والتأثير؛ أي تسمية الأمور المكروهة والمحرمة بغير مسمياتها فالفاتك سموه الناسك، والخلي سموه الولي، والماكر سموه الذاكر....وذلك بغرض التمويه والخداع.

اعتمد الإبراهيمي على النقد اللاذع والسخرية الهادفة حيث بيَّن بعد ذلك طبيعة خريجي هاتين المدرستين وتجلى ذلك في نموذج "الحاج التهامي الجلاوي" الذي وصفه بقوله: «هذا الرجل التهامي الذي ليس من تهامة ولا كرامة بأخبث ما تقوم به أحط صنيعة استعمارية في أرض الله...»[16]. فهذا النموذج عدّه من تلامذة هذه المدرسة الاستعمارية ومن النجباء المقدّمين، فهذا النوع حسب تصوره لم ينجح بعلمه وإنما «قفز قناطير الامتحان بخطوة، وغبر في وجوه أساتذته بلهوة ...»[18]، فهذا نقد لاذع يفضح كيفية نجاح تلامذة هذه المدرسة، وبخاصة أنّ هذا النموذج قطع كل الأسئلة بهذه الجمل التي تبين طبيعة العلم الذي اكتسبه من هذه المدرسة، حيث يقول: «أنا روح الاستعمار وسره وحقيقته المشخصة وإنه لو لم يكن في الدنيا استعمار، لكنتُ وحدي استعمارا قائما بذاته ولو انقطع الاستعمار– لا قدر الله– فسأكون أنا وحدي حافظ أنسابه ووارث أسلابه وقيم أبوابه والمتعبد بتلاوة كتابه، وأنا وحدي المثال المحقق لقاعدته، وأنا وحدي الدليل على خروج الاستعمار من صورته الذهنية إلى حقيقته الخارجية إنني كنت أرجو أن أكونه لو لم يكن، فلما أخطأني من ذلك ما أخطأ ابن أبي الصلت من النبوّة، لم أكن كابن أبي الصلت، بل كنت أول المؤمنين به، الذابّين عن حياضه، المغرّدين كالذبابة في رياضه الناشرين لدينه، العاملين على امتداد سلطانه، وإنني عاهدت نفسي على أن أكونَ للاستعمار ما كان أبو مسلم الخراساني للمنصور، أو ما كان طاهر بن الحسين للأمين وساءا مثلًا ... أين يقعان منّي؟ وأين يقع المنصور والأمين من المستعمرين الميامين؟ ... فاجعلوني سيِّدًا أكنْ لكم عبدًا؛ وأعينوني بقوة أجعل لكم بين البربر وبين العرب رَدْمًا، ثم لآتينّكم منهم بطوابير تملأ البوابير»[19].

عمد الإبراهيمي إلى تحرير جواب هذا التلميذ النجيب في الامتحان الكتابي ليحدد طبيعة، وماهية التلميذ المنتمي إلى هذه المدرسة، ونعاين من خلالها – الإجابة – التعريض بهؤلاء التلاميذ، فالإجابة فيها سخرية مبطنة توحي بالإزدراء الذي يكنه الكاتب لهذه الفئة

التي باعت الدين والوطن من أجل خدمة الاستعمار، وهذا الكلام يوحي بتهكم معنوي شديد اللذع، وبخاصة أنه تصيد جلّ قرارات وأفعال هذا التلميذ النجيب وهي بمثابة أخطاء وزلات استخدمها الكاتب للتهكم منه والتقليل من قدره، وإدانة تصرفاته السلبية، وفي المقابل تحقيق الدهشة عند القارئ وتمرير سخرية القاتمة في صورة نقدية لاذعة أدان من خلالها هذه الشخصية، وهذه السخرية توحي بسلبية الاستعمار وأعوانه.

واتخذ الكاتب أيضا من اسم هذا التلميذ "الحاج التهامي الجلاوي" آلية لبناء سخريته ووسيلة لتحقيق دهشة القارئ، حيث يقول: «إنّ تلميذا يسابق أسئلة الأساتذة بهذا الجواب لحقيق أن يفعل ما فعله الحاج التهامي الجلاوى، أو لحقيق أن يكون هو – نفسه عينه– أن يفعل ما فعله الحاج التهامي الجلاوى ... وهبْه هو هو أو هو إياه، فما هو على الحقيقة بالتهامي كما سمّاه أبواه، ولا بالجلاوي كما عزاه من عزاه، ولا بالشريف المزواري كما يصفه المادحون الكذبة، وإنما هو شر مهيأ للمغرب الإسلامي منذ كان هو، ومنذ كان للاستعمار فيه وجود...»[20]. فهذا الكلام قاله الإبراهيمي عندما شعر بأن هذه الشخصية تخلت عن واجبها، واتحدت مع الاستعمار، فسلخ عنه الكاتب اسم "التهامي" لأنّه لا يعكس حقيقة هذا الاسم، وأن مدحه بالشريف المزواري كذبة، فهو لم يرث حقيقة شرف جده "أحمد المزواري الجلاوي"، وإنما لقبه الكاتب بـ"شر" قد هيأ وبرمج من أجل تدمير المغرب الإسلامي، وكل تلك الملفوظات التي استخدمها كونت صورة هجائية لاذعة تنم عن سخطه الشديد من هذه الشخصية نتيجة لأفعالها السلبية.

ثم عمد الكاتب إلى تقديم صورة أخرى قاتمة وساخرة عن هذه الشخصية بعد أن استقبلت الاستعمار بالأحضان بقوله: «وهو سلاح من الباطل مجرّد في وجه الحق كلّما نأمتْ نأمتُه، وجلت عن السكوت ظُلامته، وما أمرُ هذه الأسلحة الاستعماريَّة بسِرّ، فقد فضحناها بأقوالنا، ثم فضحت نفسها بأعمالها، ثم فضحها الاستعمار بسوء استعمالها... قام هذا الرجل التهامي الذي ليس من تهامة، ولا كرامة، بأخبث ما تقوم به أحط صنيعة استعمارية في أرض الله؛ وتسامى إلى مقام ينحطُّ عنه أمثاله من الآلات البشرية الرخيصة وتطاول إلى أفُق من يتطاول إليه يجد له شهابًا رصدًا، وإننا لا ندري من أي حاليْه نعجب:

أمن تطاوله ذاك، وأين السّمك من السمّاك؟ أم من مجيئه في مقام واحد بنقيضتين، تَلعَنُ إحداهما الأخرى؟ فقد أظهر نفسه في الأولى فاتكًا جريئًا، وفي الثانية ناسكًا بريئًا، فشهدت الثنتان بأنه آفِك مبطل في الثنتين....»[21]، فهذه صورة رسمها الكاتب بكلمات تنم بالمفارقة بين ما تدعيه هذه الشخصية من تدين، وبين حقيقتها (باطل، لا كرامة، أخبث أحط، فاتكا جريئا/ ناسكا بريئا) وبذلك فهو يكشف طبيعة هذه العلاقة، ويسخر منها ويدعو إلى اجتثاث أصلها (= الاستعمار).

ويواصل الكاتب سخريته مرة أخرى من هذه الشخصية المدعية بالصلاح والدفاع عن الدين، ولكنها في حقيقة الأمر تُكن غير ذلك، حيث يقول الكاتب: « ...أظهر نفسه في الأولى فاتكًا جريئًا، وفي الثانية ناسكًا بريئًا...أراد في الأولى أن يظلم الناس ولا يتظلَّموا وأن تبسط يداه فيهم بالضر والشر ولا يتكلَّموا، وأن تكون آيةُ الحق منسوخةً لأجله، وتاج الأمة المغربية الماجدة موطئًا لرجله ... ويلُمّه مرةً أخرى! لقد جاء بها شنعاء صلعاء؛ ثمّ ماذا؟ وأن يكون لأولئك المستضعفين الذين أشقاهم القدر به وبحكمه وغشِّه وظلمه كجهنم لمن حلّ فيها ... يستغيثون فلا يغاثون. وأراد في الثانية أن يكون محاميًا للدين وظهيرًا ووليًّا ونصيرًا وكافلًا ومُجيرًا، وممن يريد أن يمنع المتظلمين؟ من مرجعهم الأسمى، وحماهم الأحمى، سلطانهم الشرعي "محمد بن يوسف." وممن يريد أن يجير الدين؟ من مجيره ... بل من جاره المنيع الجناب، بل من ملجئه وعصمته، السلطان "محمد بن يوسف...»[21].

لقد اعتمد الكاتب على المفارقة الساخرة ليبين تناقض الشخصية/التهامي في أفعاله وأقواله (يظلم/ محامي، مجيرا، نصيرا ، الضر والشر/ ظهيرا، وليا، كافلا) ، ثم يتساءل ساخرا: ممن يريد أن يمنع المتظلمين؟ وممن يريد أن يجير الدين؟... من جاره المنيع الجناب بل من ملجئه وعصمته، السلطان "محمد بن يوسف". فهو يقدم صورة ساخرة تعكس تناقض وغفلة هذه الشخصية بأن عملها مفضوح لا محالة.

ثم يقدم صورة أخرى ساخرة تنم كشف نواياها، حيث يقول: «... أمِنَ الدين، أن يكون عدوًّا لأنصار الدين، وظهيرًا لأعداء الدين؟ ... أيّ دين يعني؟ فإن كان يعني دين محمد بن عبد الله، قلنا له ما قاله عمر لعقبة ابن أبي معيط:حنَّ قَدَح ليس منها، وقلنا له:

ليس الإسلام بعشّك فادْرج، وليست دارُه بدارك فاخرجْ، وقلنا له: واضيعة الإسلام إن كنت أنت ناصره! وقلنا له: ما لك وللإسلام بعد أن تجرّدت من فضائله، وتعرّيت من آدابه وقفزت حدوده. كأنها –عندك– درجات الامتحان...»[22].يسخر الكاتب من فهم وادعاء هذه الشخصية/التهامي لذلك راح يتسأل عن طبيعة الدين الذي يقصده، وهذا فيه إيحاء إلى التلبيس الذي يمارسه التهامي، لهذا حدّد له الكاتب الدين الصحيح، وبين له أنه لا ينتمي إليه لذلك طرده (فادرج، فاخرج، تجردت من فضائله، تعريت من آدابه، قفزت حدوده)

ثم يعود الكاتب ويبين الدين الذي قصده التهامي، فقد تم تلبيس الحق بالباطل، حث يقول: «إن كان يعني نحلة الشاب الظريف[23]، أو دين صالح بن طريف[24]، قلنا: ما أشبه الباطل بالباطل، وما أحقّ العاطل بنصرة العاطل ! لم يفُتْ هذا المخلوق العجيب إلا أن يغلط يومًا فيدخل أحد مساجد مراكش الجامعة (ولو جامع الفناء ... مثلًا) فيصعد المنبر في يوم جمعة، ويخطب الناس، فيتباكى كما يتباكى بعض الناس عندنا، ويتشاجَى كما يتشاجون، ولا غرابة ... فهما رضيعا لبان، وسليلا أمومة، وخرّيجا مدرسة، وبذلك– فقط– يصبح الحاج التهامي من "رجال الدين"»[25]. في هذا المقطع تصل السخرية إلى ذروتها فهو يستهزئ به لطبيعة الدين الذي يعتقده (=الباطل)، ثم يصفه بالمخلوق العجيب وهذه سخرية لاذعة تعرّي هذه الشخصية وتكشف تناقضاتها، ودناءة أفعالها وتصرفاتها واعتقاداتها، كما تشير إلى قوة الكاتب ومعرفته بدينه.

استخدم الإبراهيمي السخرية؛ لأنها أسلوب نقدي يهدف إلى بناء حياة مستقيمة ويساعد على تثبيت السمات التي تنسجم مع المجتمع من مكارم الأخلاق والصدق والوفاء وينبّه على نقائص المجتمع ويوجه الأفراد إلى سلوك قويم[26]، وبذلك فقد وظّفه في مقاله بهدف الدفاع عن الدين والوطن، وكشف أفعال بعض أذناب الاستعمار الذين يُظهرون عكس ما يضمرون، كإبليس ينهى عن المنكر، وهو في حقيقة الأمر يخطط ويلبس ويزخرف ليستدرج الإنسان، وكذا شخصية التهامي تلبس وتزخرف بهدف التفريق، ولكن الإبراهيمي طلع عليه بعلمه وقلمه ففضحه، فجلّى ظلامه بنور علمه، وقدم صورة ساخرة تكشف حقيقته التي تُرغب في الخير وتحض عليه ظاهريا، ولكن الباطن يضمر الهلاك للأمة والدين.

3– تجليات السخرية في العنوان: إنّ العنوان يُمكّن المتلقي من الولوج من خارج النص إلى محتواه الداخلي[27]. وهذا ما أقرّت به «الكتابة الحديثة إبداعا، وتأليفا، ونقدا أن النص الموازي وبضمنه العنوان يعتبر مدخلا ضروريا لكثير من أنواع الخطابات ...»[28]، وعليه فالمتأمل في عنوان المقال "إبليس ينهى عن المنكر" يتضح له أن هناك مفارقة عجيبة فالمألوف عندنا أن إبليس يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وبذلك يتجلى لنا تناقض ظاهري يقود القارئ إلى التساؤل عن المغزى الحقيقي من صياغة العنوان بهذا الشكل وبهذا المعنى، ولكن بعد قراءة المقال يتضح أن هناك معنى حقيقي يتجاوز المعنى الظاهري أو الحرفي لطبيعة العنوان، وهو التلبيس الذي يمارسه الاستعمار وأعوانه يشبه التلبيس الذي يمارسه إبليس لإغواء الإنسان، وعليه فالصورة التي رسمها الإبراهيمي لهذه الشخصية لم تكن بدافع التعالي والغرور، إنما صدرت عن شخصية ذات بصيرة نافذة، عرفت الخطر الذي يشكله هذا النموذج على الدين والأمة، فاعتمدت النقد اللاذع والسخرية الهادفة لفضح حقيقته، وبذلك فالإبراهيمي ابتعد عن السخرية التي تسعى إلى الإصلاح في قالب الإضحاك، وإنما عكس من خلال سخريته المفارقة العجيبة "إبليس ينهى عن المنكر" لينتقد الفساد ويبيّن موقفه الصريح من هذه النماذج المتنكرة المدمرة للبلاد والعباد.

4 . اللغة الساخرة: إن اللغة هي وسيلة التعبير عن الأفكار والمشاعر بواسطة الملفوظات لتحقيق التواصل والتفاهم بين الطرفين، لذلك يمكن القول «أنّ في اللغة الأدبية العالية طريقا سويا للإعراب عن المشكلات السياسية والاجتماعية...»[29]، وقد عُرف عن الإبراهيمي أنه يتمتع بقدرة وبراعة في توظيف ألفاظ العربية وتراكيبها وترسخيها لخدمة الفكرة المقصودة[30]، وقد عمد الكاتب في هذا المقال إلى تخيّر الألفاظ والتراكيب لخدمة فكرته الأساسية التي عالجها في مقاله بغية كشف وفضح شخصية التهامي، وغيره من أذناب الاستعمار، وبخاصة أن «العلاقات التي يقيمها الأديب بين مفردات اللغة تعكس صورة العلاقات في العالم الذي أوجدَه»[31]، وبذلك فقد عمد الكاتب إلى تخير الألفاظ فهي قوالب المعاني، ليحقق الإقناع وليفحم المسخور منه، وبخاصة أن هذا النوع من المقال ذو طابع إصلاحي سياسي، لذا نجده يركز على الفكرة، والإبلاغ والإقناع لتحقيق غرضه

المقصود، وهو كشف هذه الشخصية وفضحها بغية المحافظة على الدين والأمة، وعليه: ما الذي ميّز لغة الكاتب في هذا المقال؟ وكيف عبرت عن مقاصده؟

أ– الألفاظ: إنّ المعاني تتسم بسمة الغيبية، والألفاظ هي التي تعطي لها سمة الظهور والكشف، وبذلك فالارتباط بين اللفظ والمعنى أساس العمل الأدبي، فالجمال الحقيقي لا يكمن في اللفظ وحده أو المعنى وإنما في الصياغة[32] التي تخرج الكلّ متكاملا لتوصيل الرسالة وتحقيق الإقناع والتأثير، ويتجلّى لنا من خلال لغة هذا المقال أنّ سخرية الكاتب تراوحت بين سخرية صريحة، وسخرية خفية، ويلجأ في سخريته الصريحة إلى انتقاء الألفاظ المعبّرة واللاذعة المباشرة نحو: لفظ إبليس في قوله: « إبليس ينهى عن المنكر»[33].

فلفظ إبليس للدلالة على المكر، والتلبيس، وهذا يعدّ نقدا لاذعا وفضحا لطبيعة هذا التلميذ (=إبليس)، كما استعمل لفظة "الجهل" في قوله: «ربما الجهل شرطا في صحة الانتساب»[34]، فلفظ "الجهل" استخدم بطريقة توحي بسخرية مباشرة عندما جُعل كشرط للانتساب للمدرسة التي عادة تطلب شرط العلم لا الجهل، وبذلك فهي سخرية بالمفارقة.

وكذا لفظ موت في قوله: «موت الضمير الآدمي»[35] أحال هذا اللفظ إلى انعدام الضمير عند تلاميذ هاتين المدرستين، وهذا فيه نقد لاذع، ولفظ "شنعاء وصلعاء" في قوله: «لقد جاء بها شنعاء صلعاء»[36] استخدم اللفظين للدلالة على جوره وظلمه لأولئك المستضعفين الذين أشقاهم القدر به، وغيرها من الألفاظ التي استخدمها، والتي تتضمن نقدا لاذعا موجّها للنموذج المتجلي في شخصية "التهامي" حيث اختار الكاتب الألفاظ التي تعبر عن المعنى بدقة واستعملها في سياقات محددة لا يقع اللبس في دلالاتها.

كما استخدم بعض الألفاظ للتلميح والإشارة إلى شخصية "التهامي" وتجلّى ذلك في قوله: «هذا المخلوق العجيب...»[37]. نعاين أنّ المخلوق العجيب المقصود في هذا الكلام هو "التهامي" حيث سخر منه بوصفه هذا؛ لأنه خرج عن حدود الدين الصحيح، وجاء بتصورات جديدة تناسب أطماعه وأطماع الاستعمار؛ لذلك نجد الكاتب يأمره بالمضي في سبيله، فدار الإسلام ليست بداره.

كما استخدم أسماء الحشرات يرمز بها إلى هذه الشخصية منها "الذبابة" في قوله: «...المغرّدين كالذبابة في رياضه ...»[38]، وبذلك فقد كنّى بهذه الحشرة عن شخصية "التهامي" الذي يحوم في رحاب الاستعمار ويذود عن أطماعه.

ب– **التراكيب:** نقصد بها الصيغ التي حملها الكاتب الدلالات الساخرة؛ أي تلك الجمل والعبارات الحاملة لمعنى السخرية، ومن العبارات ذات الدلالة الساخرة قوله: «تروض النفوس على الشر بالجملة»[39] فغريب أن تغرس المدرسة الجوانب السلبية في التلميذ فهذه مفارقة ساخرة من ماهية هذه المدرسة، وهذا نقد لاذع هدفه كشف حقيقة العدو وأذنابه ويسعى دائما إلى تبيان المفارقة العجيبة بين ظاهر المدرسة وباطنها حيث يقول: «لم يعجزها أن تلبس الفاتك منهم لباس الناسك، وتقلد الراعي وظيفة الداعي »[40].

وقوله أيضا: «وتسم الخلي بسمة الولي، وتحرك لسان الماكر بورد الذاكر»[41]، وقوله: «وتؤزِّر أولاد الحرام بإزار الإحرام، وتخلع على الصعلوك ألقاب الملوك»[42]، فهذه سخرية استخدم فيها هذه العبارات التي تكشف حقيقة خريجي هذه المدرسة، وتوحي بمفارقة عجيبة بين طبيعة المدرسة، وطبيعة النماذج التي تؤهلها هذه المدرسة بغية الإيهام والتضليل وتحقيق التسلط والهيمنة على الأمة بواسطة هؤلاء المريدين.

ومن السخرية في المقال عبارة ساخرة تصف هذا التلميذ وتوحي بخيانته، والتي جعلها الكاتب على لسان التلميذ نفسه، حيث يقول: «أنا روح الاستعمار، وسره، وحقيقته المشخصة، وإنه لو لم يكن في الدنيا استعمار لكنت وحدي استعمارا قائما بذاته»[43].

جعل الكاتب هذه الشخصية تعترف بلسانها بخيانتها، وهذا الاستنطاق والاعتراف هو بمثابة سخرية ونقد لاذع يوحي بقدرة الكاتب الإبداعية في قيادة شخصياته إلى الاعتراف بما يخدم فكرته.

كما استدعى الكاتب بعض الشخصيات كابن أبي الصلت في قوله: «وإنني كنت أرجو أن أكونه لو لم يكن، فلما أخطأني من ذلك ما أخطأ ابن أبي الصلت من النبوة، لم أكن كابن أبي الصلت، بل كنت أول المؤمنين به الذابِّين عن حياضه»[44].

فهذه سخرية صريحة توحي بحقيقة شخصية التهامي، فهو يتوق إلى التسلط والتحكم في الرقاب، فقد شبهه بابن أبي الصلت الذي تمنى أن ينزل عليه الوحي ويكون النبي المنتظر ولما نزل على محمد (ﷺ) لم يؤمن به، فكذلك التهامي تمنى أن يكون هو الاستعمار، ولما أخطأه كما أخطأت ابن الصلت النبوة، لم يجاف الاستعمار إنما آمن به، فجاء الكاتب بهذه المقابلة ليكشف حقيقة مفادها أن هذا الشخص يسعى إلى بسط يديه بالضر والشر في هذه الأمة، وهذا نقد فاضح وصريح اتجاه التهامي.

كما استحضر أيضا شخصيات تاريخية وتجلى ذلك في قوله: « أن أكون للاستعمار ما كان أبو مسلم الخراساني للمنصور أو ما كان طاهر بن الحسين للأمين وساءا مثلا...أين يقعان مني؟ وأين يقع المنصور والأمين من المستعمرين الميامين؟...فاجعلوني سيدا أكن لكم عبدا وأعينوني بقوة أجعل لكم بين البربر والعرب ردما»[45].

إن هذه العبارات المكونة لهذا النص توحي بنقد لاذع يعكس طبيعة هذه الشخصية ويكشف مدى خيانتها، وبخاصة أن الكاتب جعلها على لسانها ليفضحها أمام الأمة، وقد جعل إخلاصها للاستعمار أكثر من إخلاص أبي مسلم الخراساني للمنصور، وطاهر بن الحسين، بل وجعل المستعمرين أحسن وأجلّ من هذه الشخصيات الإسلامية، وبين حقيقتها وهي نشر الفتنة والتفرقة بين البربر والعرب، فالكاتب أراد أن يسخر من هذه الشخصية التي تعتقد أنها غير مكشوفة النوايا، بل عمد إلى تصويرها تصويرا فاضحا ينم عن نواياها الحقيقية.

ويواصل سخريته من شخصية التهامي بقوله: «هو سلاح من الباطل مجرد في وجه الحق»[46] يصفه بأنّه سلاح الباطل على الرغم من إيهام الأمة بصلاحه وتقواه، وهذا نقد وسخرية من إدعاءاته المفضوحة بأنّه سيكون «لأولئك المستضعفين الذين أشقاهم القدر به وبحكمه وغشه وظلمه كجهنم لمن حل فيها...يستغيثون فلا يغاثون»[47]، فهذا الكلام يوحي بمفارقة عجيبة بين حقيقة الشخصية وإدعاءاتها المزيفة، فالكاتب استخدم هذه العبارات ليكشف حقيقتها ويسخر منها ومن إدعاءاتها الكاذبة.

وتكون سخريته من هذه الشخصية أكثر وضوحا عندما نعتها بالمخلوق العجيب بقوله: «لم يفُتْ هذا المخلوق العجيب إلا أن يغلط يومًا فيدخل أحد مساجد مراكش الجامعة (ولو جامع الفناء ... مثلًا) فيصعد المنبر في يوم جمعة، ويخطب الناس، فيتباكى كما يتباكى بعض الناس عندنا، ويتشاجَى كما يتشاجون، ولا غرابة ... فهما رضيعا لبان، وسليلا أمومة، وخرِّيجا مدرسة، وبذلك– فقط– يصبح الحاج التهامي من "رجال الدين"»[48] فهذه العبارات تعكس سخرية قاتمة اتجاه هذه الشخصية، حيث راح الكاتب ينصحها ويبين لها السبيل الذي ربما يقودها إلى أن تصبح من رجال الدين، وهذا فيه تلميح إلى عدم معرفة هذه الشخصية بحقيقة الدين الإسلامي على الرغم من إدعائها للعلم.

خاتمة:

- توسل الإبراهيمي السخرية كآلية إجرائية مساهمة في بناء معمارية المقال، ومعبرة عن مقاصده وتصوراته وأفكاره.
- استعان بالسخرية في مقاله لتوضيح الحقائق، ومجابهة الواقع ونقده بغية إفحام الخصوم وتعرية نواياهم.
- تراوحت سخريته في النص بين التلميح والتصريح لكشف حقيقة بعض أذناب الاستعمار.
- عمد الكاتب في هذا المقال إلى تخير الألفاظ والتراكيب لخدمة الفكرة المعالجة، فجاءت لغته عذبة واضحة يمكن للقارئ أن يستشف المعنى بكل سهولة وسلاسة.
- استخدام الإبراهيمي للسخرية ليس بهدف الإضحاك، وإنما شد انتباه القارئ وضمان تفاعله لمعرفة حقيقة ونوايا هذه الشخصية وغيرها.

الهوامش والإحالات:

(1)– نشر هذا المقال في العدد 143 من جريدة «البصائر»، 19 فيفري سنة 1951.

(2)– ينظر، نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، دط، دت، ص181

(3)– ابن منظور، لسان العرب، مج4، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص 352–353.

(4)– ينظر، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، دط، دت، ص 470.

(5)– راغب نبيل، موسوعة الإبداع الأدبي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997م، ص 188.

(6)– ينظر، صادق إبراهيم ماوري، السخرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر، مجلة المعرفة، ع511 نيسان، 2006م، ص 68.

(7)– نزار عبد الله الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي، دار حامد، عمان، ط1، 2012، ص16

(8)– راغب نبيل، موسوعة الإبداع الأدبي، ص 188.

(9)– شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، منشورات عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، دط، 2003م، ص 51.

(10)–عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، 35. 36

(11)– عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 376

(12)– من آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر: مجموع المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر خاصة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، د ت، ص 463.

(13) – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(14)– م ن، ص 463– 464.

(15)– ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب)، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، ج1 تح: محمد عزيز شمس، وخرّج أحاديه مصطفى بن سعيد إيتيم، دار عالم الفوائد، دط، دت، ص 193

(16)– من آثار محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 465.

(17)– المصدر نفسه، ص 464.

(18)– م ن، والصفحة.

(19)– م ن، ص 464–465.

(20)– م ن، ص 456

(21)– م ن، ص 465–466.

(22)– م ن، ص 466.

(23)–هو شاعر جزائري من تلمسان كان في المائة السادسة للهجرة، في شعره معان قد تكون من شطحات الخيال ولكن ظواهرها ملحدة (ينظر، من آثار محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 466)

(24)– متنبئ ظهر في مدينة تامسنا بالمغرب الأقصى ووضع لنفسه قرآنا سخيفا وسمى سوره بأسماء غريبة وفتنت به الكثير من القبائل البربرية، وكان ظهوره في خلافة "هشام بن عبد الملك" وأصله من قبيلة برغواطه البربرية. (من آثار محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 466.)

(25)– من آثار محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 466.

(26)– ينظر، محمد ناصر بوحجام، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، المطبعة العربية، دط، 2004، 2.

(27)– سلوم درغام سلوم، "جمال الوطن والمقاومة في الشعر العربي"، جريدة الأسبوع الأدبي، العدد1325 السنة السادسة والعشرون، 2012/12/29م.

(28)– عبد السلام ناس عبد الكريم، 2008م، في تأويل النص الشعري: مقاربة نظرية تطبيقية في نص الحداثة، شركة إمبريما مادري، ط1.

(29)– إبراهيم السامرائي، أصالة العربية في عيون البصائر، مجلة الثقافة، ع87، ص 217.

(30)– ينظر، عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009/ص 36

(31)– أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط2، 1978م، ص 235.

(32)– ينظر، مختار يولعراوي، جدلية اللفظ والمعنى في التراث النقدي العربي، مكتبة الآداب، القاهرة ط1، 2009م، ص 19

(33)– من آثار محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، 463.

(34)– المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(35)– م ن، ص ن.

(36)– م ن، ص 465.

(37)– م ن، ص 466.

(38)– م ن، ص 464.

(39)– م ن، ص 463.

(40)– م ن، ص ن.

(41)– م ن، ص 463-464.

(42)– م ن، ص 464.

(43)– م ن، ص 464.

(44)– م ن، ص ن.

(45)– م ن، ص ن.

(46)– م ن، ص ن. ص 465.

(47)– م ن، ص ن.

(48)– م ن، ص 466.